نهايةُ الرحلة

الآن يتضح بجلاء لكل قارئ للفاتحة ومُتدبّر لها ومُتأمّل فيها؛ أن هـذه السـورة المُعجِـزة كادت أو تكون قد اشـتملت على الدين كلِّه، مما جعلها في أوجزِ ألفاظ، وأسـلَسِ أسـلوب، وأدقِ عبارات تُذكـر القلبَ في أقل وقـتٍ بمعَانٍ جمَّة يحتاجُهـا القلبُ في طريقِه وسيْره إلى الله.

قال أحد السلف:

إنَّ اللـه جمع الكتب المُنزَّلة في القرآن، وجمع علم القرآن في المُفصَّل -من سورة ق إلى نهاية سورة الناس- وجمع علم المُفصَّل في فاتحة الكتاب، وهي سـرُّ القرآن، وجمع علم فاتحة الكتاب في سرِّها في قوله تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْـبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ).

لذلـك كله فرض الله قراءتها في كل ركعة وحَكم ببطلان كل صلاة لا تقرأ فيها أم القرآن.

فتأمَّل في سـورة الفاتحة التي هي الدُّرةُ الفريدة في المعجزات السـماويَّة، وقطعـةٌ رائعـة مِـن القِطَـع البيانيَّـة لـو اجتمـع أذكيـاءُ العالَـم، وأدباءُ الأمـم، وعلماء النَّفـس، وقادةُ الإصـلاح، وزعماء الروحانيَّـة؛ علـى أن يضعـوا صيغةً واحـدةً يتفق عليها البشـر على اختلاف طبقاتهم، وتنوُّع حاجاتهم، وتشـتُّت خواطرهم، يتقدمون بهـا أمام ربهم ويتعبَّـدُون بها في صلواتهم تُعبِّـر عمَّا في ضمائرهم ومشاعرهم، وتَفِي بحاجاتهم وأغراضهم لَمَا جاءوا بأحسنِ منها أو مثلها[1].

فاعلم أخي في الله -علمني اللهُ وإيَّاك- أن هناك موضوعين رئيسيَّين في سورة الفاتحة وهما (العلم والعمل).

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾

هذا هو العلم، العلم بمَن؟ العلمُ بالله.

---

(١) أبو الحسن الندوي، بتصرف.

﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾

وهذا هو العمل، العمل بماذا؟ العملُ بمُقتضى هذا العلم.

فالسُّورة ابتدأت بالعلم، وانتهت بالعمَل، وهذا هو دينُ الإسلام (علمٌ وعمل) فإذا قادك العلمُ إلى العمل، **فأنت مُسلم على الصراط المستقيم**، تدخُل في ظلال (أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ).

وإذا قادك العلم إلى الغرور وترك العمل، فأنتَ مغضوبٌ عليك ولك نصيب مِن وصف (ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ).

وإذا عمِلتَ دون علم وهداية ومعرفة، فأنت ضالٌّ تائهٌ حيران فتستحق وصف (ٱلضَّآلِّينَ).

وفي الخِتام: أبرأُ مِن حولي وقوتي فقد تم بحمد الله وحوله وقوته ما تيسَّر لي كتابته وجمعه وسعيتُ في ترتيبه وتوضيحه وتقريره ولا أدَّعي أنَّني جئتُ فيه بما لم يأتِ به الأوائلُ، وقد راعيْتُ في هذا الكتاب أن يكون فيه مِن تزكية النفوس وصلاح القلوب وزيادة الإيمان؛ حظٌّ وفيرٌ لقارئه، وأن يكون فيه مِن تصحيح المفاهيم وتوضيح المصطلحات؛ إشاراتٌ لمَن رام ذلك واعيًا له ومُتنبِّهًا.

ولمَّا كان هذا الكتاب الذي بين يديك، تدبُّرًا للفاتحة واستخراجًا للمعاني الجمَّة والوصايا الجامعة؛ وكان على المسلم أن يستفيدَ مِن هـذا كله على قدر اسـتطاعته؛ فإني أقتـرح على القـارئ الكريم بعد فراغـه مِن القراءة، أن يُعيد قراءة الفاتحة بقلبٍ جديد، وفهْمٍ سـديد، ثم يستشعر ما في هذه الفاتحة مِن معانٍ ومناسبات، وفوائدٍ وعظات، وهدايـاتٍ ووصايا واضحات، ويتعهد نفسَـه وقلبَه بتطبيقِها والعملِ بها في دُنيا النَّاس، حتى يرسـخَ ما قرأه في عقلِه، ويحسَّ به في قلبِه، ويتلذَّذ به في مُناجاتِه لربِّه، وهكذا لتتجدَّدَ معاني الفاتحة التي يكرّرُها العبدُ المسلم في حياته أكثر مما يُردِّدُ اسمَه في كثيرٍ مِن الأحيان.

ومهمـا بذلـتُ مِـن جهد فـي هـذا الكتاب فـلا بُـدَّ وأن يكون للتقصيـر فيه نصيب، فمَن رأى عيبًـا أو وجدَ خللًا، فليُصلِحَ العمل وليسُدَّ الخلل.

واللهَ أسألُ أن يكون هذا العمل صالحًا، ولوجهه خالصًا، وأن يكون عونًا على تدبُّر كتابه وأن يكون دافعًا للدعوة إليه وأن يقرأه مَن يقرؤه ثم يُعلِّمه لغيره بعد ما يعمل به، ويحثُّ غيرَه أن يعملَ به، فإنَّ خيرَ العلمِ ما صدَّقَه العمل.

وأرجـو مِن أخـي القارئ دعوةً بظهر الغيْـب، أن يعفوَ اللهُ عن زلَّاتـي ويغفرَ لـي خطيئاتي وعثراتـي، وألَّا يجعل حظِّـي مِن قولي لفظـي، وأن يغفـرَ لي جَـدِّي وهزلـي وخطئي وعمْـدي وكل ذلك عندي، ولوالديَّ وللمؤمنين، وأن يهديَنا جميعًا صراطَه المُسـتقيم، وأسألُه سُبحانَه أن يُأدِّبَنا بأدَبِ القرآن، ويرزُقنا فهْمَ القرآن، ويُسعِدَنا بسعادةِ القرآن، ويُشرِّفَنا بشرَف القرآن، ويُطهِّرَ قلوبنَا بالقرآن، ويُنوِّرَ حياتَنا وبيوتَنا وقبورَنا بالقرآن، واجعلنا اللهُمَّ مِن أهل القرآن الذين هـم أهلُك وخاصَّتُك يـا أرحمَ الرَّاحمين، وارزقنا منـه العلمَ النَّافِعَ والعمـلَ الصالـح إنَّـك أنـتَ الرحمن الرحيـم، وصَلَّى اللهُ وسـلَّمَ وبارَكَ عَلَى نبيّنا مُحمَّدٍ وعلى آلِه وصَحبِه أجمعين والحمدُ لله ربِّ العالمين.